ألدوس هكسلى

مؤرخ طبيعى الإنسانية

بقلم اسكندر هندرسون

مؤلف كتاب « تفسير لشخصية ألدوس هكسلى »

كان ألدوس هكسلى Aldous Huxley فى وقت ما لا أدريا وماديا ، أما الآن فهو يؤمن بمعتقدات مستمدة من الفلسفة الدينية الهندية وهو فى قصصه ومقالاته وقصائده يكشف عن شخصية شديدة التعقيد ، دقيقة على الفهم ، ذات ميول متضاربة لا يوازن بينها إلا ذهن جبار مشغوف بالتأمل والتفكر .

فمنذ سبعة عشر عاما ، قال فى كتابه « دراسات صحيحة Proper Studies » (١٩٢٧) : لو ألزمت بتحديد موقفى لقلت إننى امرؤ مثقف يوجه اهتمامه الأكبر إلى دراسة العالم الخارج دون التأمل الباطنى ... وأنا أفهم التفسير المادى للحياة الباطنة .

ولكنه فى سنة ١٩٤٤ يقرر أن أركان عقيدته هى : « أن هناك لاهوتا ، أساسا ، براهما ، ضوءا مبينا ينير الفراغ ، هو القانون غير الظاهر الذى يكمن وراء كل المظاهر ؛ وأن الأساس حالّ فى الأشياء ومتجاوزلها فى وقت معا ؛ وأن فى مقدور الإنسان أن يحب الأساس الإلهى ، ويعرفه ، ويتحد معه وحدة فعل بعد وحدة قوة ؛ وأن البلوغ إلى هذه المعرفة الاتحادية باللاهوت هو القصد والهدف الأخير للوجود الإنسانى » .

ولقد كان هكسلى دائما يدرك العناصر التضاربة فى شخصيته وفى مجموعة مقالاته : « اعمل ما شئت Do what you will » (١٩٢٩) وضع خلاصة لفلسفة « عبادة الحياة life worship » أو « الافراط المعتدل balanced excess » ، بناها على الإيمان بمبدأ أساسى هو تعدد جوانب كل شخصية . قال : « إن عابد الحياة هو يقينى أحيانا ، وصوفى أحيانا أخرى ، لا أدرىٌّ ، ملىء بالسخرية ، ومؤمن فياض بالإيمان ... والخلاصة أنه يقبل كل نفس من نفوسه المتعددة ، حين تظهر فى عقله الظاهر ، ويعتبرها إذ ذاك نفسه الحقة فى تلك اللحظة . هو يقبل كل نفس وجميع النفوس — حتى الخبيثة ، حتى الوضيعة المعذبة ، حتى العابدة للموت والمسيحية بطبعها . هو سيقبل كلا منها وسيعيش فى كل منها عيشة مفرطة » .

إن شخصية ألدوس هكسلى المعقدة ، والقالب العلمى لذهنه ، وأسلوبه النثرى الجلى الساطع ، يمكن اعتبارها ميزات ومواهب موروثة ، فان من سلفه الذين حملوا إسم هكسلى أفرادا كانوا من جبابرة العقول فى القرن التاسع عشر بانكلترة .

ولد فى ٢٦ يوليه سنة ١٨٩٤ ، وكان الإبن الثالث لليونارد هكسلى وجوليا آرنولد . أما أبوه ، الذى ولد فى سنة ١٨٦٠ ، فكان ابن توماس هنرى هكسلى العالم الذى بذل أعظم الجهد فى تقريب مذهب داروين من عقول عامة الشعب . وأما أمه فكانت ابنة أخ ماثيو آرنولد ، مؤلف « رستم وسهراب » وغيرها من القصائد الكثيرة ، ومؤلف « الثقافة والفوضوية » وغيره من كتب النقد الأدبى الرائع . وكانت أيضا حفيدة توماس آرنولد القسيس والناظر المشهور لمدرسة رجبى الذى أدخل إصلاحات كثيرة على نظام المدارس العامة الانكليزية .

كانت البيئة التى نشأ فيها ألدوس هكسلى بيئة تهذيب وثقافة كما كان أجداده رجال تهذيب وثقافة . عين أبوه أستاذا مساعدا لليونانية فى جامعة سنت آندروز ولما يتجاوز عمره الثالثة والعشرين ثم صار رئيسا لتحرير مجلة The Cornhill Magazine وهى من أبرز المجلات الانكليزية . وقد احتفظ بهذا المنصب سنوات كثيرات ، كما عين مستشارا أدبيا لشركة الطبع والنشر سميث والدر . وفى سنة ١٨٧٢ تزوجت خالته مارى أوغستا آرنولد بالناقد والمحرر توماس همفرى وارد ، وكانت من أبرز كاتبات الروايات فى عصرها . وروايتها « روبرت إلزمير Robetr Elsmere »

التى نشرت فى سنة ١٨٨٨ ، قد نالت الشهرة فى كل أنحاء أوربا وأمريكا .

وفى قصة « التاريخ الهزلى لرتشارد جرينو » ، وهى من القصص الأولى لألدوس هكسلى ، إشارة إلى تلك الرواية المشهورة التى كتبتها خالته ، إذ يصف البطل بأنه « قد قرأ المجلدات الثلاثة لرواية روبرت إلزمير وابتلعها ابتلاعا وهو بعد فى الثامنة من عمره » . وقد استمرت المسز همفرى وارد تكتب سنوات كثيرات ، وظهرت روايتها الأخيرة فى سنة ١٩٢٠ ، وهى السنة التى توفيت فيها . وكان زوجها الناقد هو الذى خول ألدوس هكسلى فرصة نشر مقالاته النقدية الأولى ، إذ طبعت فى مجموعة منتخبات شعرية إنكليزية نشرها . هـ . وارد فى سنة ١٩١٨ .

هكذا ورث ألدوس هكسلى العلم عن أسرة والده والأدب عن أسرة والدته ، فليس عجيبا أن يصير أديبا ، ولا أن تتجلى الروح العلمية فى أدبه بصور شتى . بل إنه حين كان صبيا أراد أن يتخذ العلم مهنته ، مثل أخيه الأكبر جوليان ، العالم البيولوجى العظيم . ولكن عينيه أصيبتا بمرض حال بينه وبين عمله العلمى ثلاث سنوات . وتلك السنوات الثلاث أكسبته هذه النظرة المستقلة إلى الحياة التى تلاحظ فى الكثير من كتاباته .

تعلم ألدوس هكسلى فى إيتون ، ثم ذهب كأبيه إلى كلية بالليول بأكسفورد . وقد أحب كلا المعهدين . فهو يقول : « إن ذهنى من النوع الذى يحب التدريب المدرسى ويقبله قبولا تاما . فأنا بثقافى بولادتى ، ذو ميل إلى الأفكار وصدوف عن النشاط العملى ، ولذلك شعرت بالراحة والاطمئنان فى الظلال المدرسية » وقد أحب أكسفورد حبا خاصا إذ تركت له هناك حريته الكاملة فى أن يعمل كما يشاء ، وكان معنى ذلك أنه أقبل على قراءة كل شىء ، وفضل ذلك على مجرد تدوين الملاحظات أثناء سماع المحاضرات . فهو يقول « أما أنا فانى لم أستمع قط إلى أكثر من محاضرتين فى الأسبوع » .

أما فى البيت فقد نشىء على حب شعر وردزورث وفلسفته ، وآراء رسكن فى الجمال والفن . يقول ألدوس : « لما تقوضت أركان الكثير من العقائد الدينية المتزمتة ، صار كثير من الأسرات الذكية ذات الفكر المتسامح يعتبر شعر وردزورث إنجيل ذلك النوع من الحلولية ، ذلك الاعتقاد المبهم بوجود عالم روحى ، الذى ملأ — إلى حد غير كاف — الفراغ الذى كانت تشغله العقائد القديمة . وحين كنا أطفالا ربينا على التقليد الوردزورثى ، وغرس فى قلوبنا الاعتقاد بأن جولة بين التلال يوم الأحد تعادل بكيفية ما الذهاب إلى الكنيسة » .

ومن قصتى هكسلى الأوليين ، المليئتين بالتهكم والهزل ، Limbo سنة ١٩٢٠ ، و Mortal Coils سنة ١٩٢٢ ، ومن روايته الأولى Chrome Yellow سنة ١٩٢١ ، يتبين رد الفعل الذى قابل به جو الوقار الأخلاقى الرفيع الذى فيه نشأ . ففى شبابه كان بطبيعته الذهنية حذرا ، متشككا ، غير ميال إلى الغلو الأخلاقى . ولكنه تحت ظاهره التهكم الساخر قد احتفظ دائما بعنصر جاد لا يقل وقارا ورصانة عن ماثيو آرنولد نفسه . وقد أخبرنى مرة قائلا : « فى قصصى المبكرة كنت أيضا أرد على الناحية المتزمتة المتفيهقة من نفسى » .

وكانت أهم المؤثرات فى تطور أسلوبه المبكر كتابات الأدباء الفرنسيين فى آخر القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين ، وخاصة رمبو ، ولافورج ، وأناتول فرانس . وقد أخبرنى فى سنة ١٩٣٥ قائلا : « أظن أن لافورج ذو شأن المراهق ، ولكنى حين قرأته من وقت قريب لم أشعر له بإعجاب زائد . وأناتول فرانس ... لقد كنت فى وقت ما أظن أن تهكمه هو قمة الذكاء والبراعة » . وقد مال أيضا إلى كتابات ريمى دى جومون ، وخاصة بسبب اهتمام ريمى بالتاريخ الطبيعى ، وهو اهتمام ما انفك هكسلى يبديه ، وخاصة فى كتابه : Point Counter Point (سنة ١٩٢٨) .

وفى أكسفورد نظم هكسلى قدرا كبيرا من الشعر ، وهو دون كتاباته النثرية أهمية ، ولكنه مع ذلك هام إذ يلقى ضوءا على مزاجه ؛ لأنه يتجلى فيه شعور عاطفى خيالى ميال إلى المثل العليا ، منهمك فى الصراع بين العاطفة والعقل ، ذلك الصراع الذى هو السبب فى انقسام النفس ، والذى تطور فيما بعد فى كتابيه Point Counter Point و Brave New world (سنة ١٩٣٢) . والقصائد المبكرة تنم أيضا عن رجل حيى عزوف عن الاختلاط بغيره من الرجال والنساء ، يفرح إذ ينجو

(البقية على صفحة ٣٨٦)